مجلة المجمع العلمي العربي

الجزء الرابع نيسان سنة ١٩٤١ ربيع الآخر سنة ١٣٦٠

تآليف ابن العديم

كان أجداد ابن العديم قضاةً تسلسل فيهم العلم اجيالاً ، وكان من وراء نعمة عظيمة تجمعت لأهله بطول الزمن . جاء اهله في القرن الثاني من البصرة ونزلوا حلب تجاراً ، وبعد حين اشتغل بعضهم بالعلم فانقلبت تجارتهم ، وبان الأدب والذكاء على كثير من ابنائهم ، حتى اذا كان القرن السابع نبغ آخرهم صاحب المكانة الكبرى في عالم العلم والأدب ، فهو وارث مجد أسرته اعانه الغنى على الظهور بالعلم ففاق الاقران وخلد اسمه في سجل الزمان .

غرست الفطرة في ابن العديم صفات نادرة كانت عوناً له على ما أخذ نفسه به من الدرس ، وعلى تجلي عبقريته وانبعاث قريحته ، هذا مع كثرة العلماء في بلده على عهده . وكان هو مفنناً فناناً ، مفنناً بالعلم الذي تلقاه عن علماء عصره وبه اعد نفسه لتولي منصب قاضي القضاة في مدينة عظيمة ، فبرز في الفقه والحديث والادب والانشاء والشعر والتاريخ وكل ما تكمل به أدوات القاضي والمفتي . وكان فناناً لأنه رزق الاجادة في الخط حتى كان رأساً في الخط المنسوب ولا سيما النسخ والحواشي ، وكان يقرأ الخط المعقد كأنه يقرأ من حفظه ، وقالوا انه اكتب من كل من تقدمه بعد ابن البواب ، وله كتاب في الخط وعلومه ووصف آدابه واقلامه وطروسه . عاش كأغنياء العلماء واخذ العلم عن علماء حلب ودمشق ، ورحل الى الحجاز ومصر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والعراق ، وكان اذا سافر يركب في محفة تشيله بين بغلين ويجلس فيها ويكتب .

هذا هو كمال الدين عمر العقيلي الحلبي رئيس الشام (٦٦٦ هـ) وكان يطلق على اسرته اسم بني جرادة ثم غلب على بيتهم اسم « العديم » ، وكان جميع أهل هذا البيت منذ كان الاسلام يحفظون الكتاب العزيز . وقد تولى خمسة منهم على التوالي منصب قاضي القضاة بحلب ، وكان كمال الدين واسطة عقدهم اشتغل بالسياسة والعلم فتولى الوزارة مرتين : الأولى للملك العزيز والثانية للناصر آخر بني ايوب ، وذهب بالسفارة عنهما الى بغداد والقاهرة . ولا يتولى الوزارات في الغالب إلا الاكفياء ، ولا ينوب عن صاحبه في السفارات الا أرباب الكفاءات المعترف بها .

ألف كمال الدين وصنف وكتب بخطه الجيد ألوفاً من الصفحات ومن جملة ما كتب بخطه البديع ثلاث خزائن من الكتب : واحدة لنفسه وخزانتان لابنيه لكل منهما خزانة فاذا فرضنا أن كل خزانة تضم مئة مجلد وهو أقل تعديل فيكون مجموع ما كتب ثلثمائة مجلد عدا تآليفه الممتعة التي نمت على تحقيقه وبحثه ولم نعرف منها سوى ثلاثة .

الأول من كتبه (ومنه نسخة في خزانة المجمع العلمي العربي بدمشق) رفع الظلم والتجري عن ابي العلاء المعري أو الانصاف والتحري ، ذكر فيه كل ماله اتصال بأصل المعري ومنشئه وأدبه وعلمه وتصانيفه ورحلته الى بغداد في طلب العلم وما وقع له طول حياته من الحوادث ومن كان يعطف عليه من أهله وكلهم معروفون بالأدب والشعر ومن كان يستملي منه مصنفاته ومن يكتب له ليل نهار وكان أربعة في جرايته وجارية ، وذكر من أخذ عنه . والمقصد من كل هذا الكتاب تبرئة المعري من التعطيل وكان اعداؤه ينحلونه أبياتاً او يحرفون اياتاً من شعره ليصححوا دعواهم عليه بانحلال العقيدة . واهم جزء من الكتاب (وهو دفع دعوى الإلحاد عن أبي العلاء) ناقص من النسخ التي عرفت من الكتاب على أن ذلك لا يمنع من نشره بالطبع لما فيه من الفوائد التي أثرت عن شيخ المعرة وحكيمها وأديبها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والثاني تذكرة ابن العديم وجد منها مجلد ، في بضعة أجزاء أولها الجزء الخامس وآخرها الجزء السادس عشر وفيها فوائد أدبية وتاريخية كثيرة وهي جديرة بالطبع أيضاً ، ومما جاء في أولها لعلي بن ابراهيم بن عبد المحسن بن قرناص الخزاعي الحموي :

جفني بجفنك قد جفاه هجوعه والقلب واصله عليك ولوعه
وسقام جسمي فيك عز ذهابه والنوم عزّ على الجفون رجوعه

ومما جاء فيها : انشدني منجب الدين ابن الامان المذكور قال أنشدني القاضي وجيه الدين ملهف ابن الصنديد الشيزري قال انشدني للأمير شرف الدولة ابن منقذ نفسه وكانت الزلزلة قد خربت شيزر سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة وسقطت القلعة على أخيه وأولاده وزوجته الخاتون اخت شمس الملوك فسلمت دونهم ونبشت من الردم فجاء نور الدين محمود بن زنكي الى شيزر وتسلمها وطلب من زوجة أخيه أن تعلمه بالمال وتهددها فقالت له : ان الردم سقط عليها وعليهم ونبشت سالمة دونهم ولا تعلم بشيء وان كان لهم شيء فهو تحت الردم . وكان شرف الدولة غائباً فلما حضر ورأى شيزر وما حل بها وعاين زوجة أخيه بعد العز في ذلك الذل عمل :

ليس الصباح من المساء بأمثل فأقول لليل الطويل ألا انجلي
شلت يد الأيام ان قسيها ما أرسلت سهماً فأخطأ مقتلي
لي كل يوم كربة من نكبة يهمي لها جفني وقلبي يصطلي
يا تاج دولة هاشم بل يا أبا التيجان بل يا قصد كل مؤمل
لو عاينت عيناك قلعة شيزر والستر دون نسائها لم يسدل
لرأيت حصناً هائل المرأى غدا متهيلاً مثل النقا المتهيل

ومنها يشير الى زوجة أخيه المذكورة

نزلت على رغم الزمان ولو حوت يمناك قائم سيفها لم تنزل
فتبدلت عن كبرها بتواضع وتعوضت من عزها بتذلل

وقال في أخيه :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ودُفنت بين ثلاثة ضاجعتهم كالليث ضاجعه ثلاثة أشبل

وكان هذا الزلزال من أشد ما منيت به بلاد الشام في القرون الوسطى هلك فيه كما قال ابن الأثير مالا يحصى كثرة وخرب منها بالمرة حماة وشيزر وكفر طاب والمعرة وأفامية وحمص وحصن الأكراد وعرقة واللاذقية وطرابلس وانطاكية . واما كثرة القتلى فيكفي أن معلماً كان في حماة ذكر عنه أنه فارق المكتب لهم عرض له ، فجاءت الزلزلة فخربت البلد وسقط المكتب على الصبيان جميعهم ، قال المعلم : فلم يأت أحد يسأل عن صبي كان له بالمكتب . أما حصن شيزر وهو على نصف نهار من حماة فكان لآل منقذ الكنانيين فلم ينج منهم أحد ، وسبب هلاكهم أجمعين أن صاحبها كان قد ختن ولداً له وعمل دعوة للناس ، واحضر جميع بني منقذ عنده في داره ، وكان له فرس يحبه ولا يكاد يفارقه ، واذا كان في مجلس أقيم الفرس على بابه ، وكان المهر في ذلك اليوم على باب الدار ، فجاءت الزلزلة فقام الناس ليخرجوا من الدار فرمح الفرس رجلاً كان أولهم فقتله ، وامتنع الناس من الخروج ، فسقطت الدار عليهم كلهم وخربت القلعة وسقط سورها وكل بناء فيها ، ولم ينج منها الا الشريد .

وكان بنو منقذ اصحاب قلعة شيزر (واليوم يقال لها سيجر) سلسلة جميلة في الشعر والأدب كما كان بنو العديم في حلب سلسلة متصلة الاسانيد بالقضاء . خربت قلعة شيزر والى اليوم لا تزال خراباً يباباً ، وأدب بني منقذ ما زال محفوظاً في الدواوين يتناقله المتأدبون ويعجب به الشادون والمحققون . وكان آخرهم أسامة (٤٨٨ — ٥٨٤ هـ) من أئمة الأدب عرفناه من الكتب التي أبقت الأيام عليها ، ومنها كتاب الاعتبار ذكر فيه آل بيته وشجاعتهم وبطولتهم وما كان لهم على عهد الصليبيين في الشام من مغامرات ومن كتبه (كتاب العصا) ومنها (لباب الآداب) وكلها مطبوعة تشهد لأسامة بالعلم والنبوغ .

ومما أثره من مذكرة ابن العديم ماتقله للسابق ابي اليمن محمد بن الخضر المعري في حلب:

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

حلب معهد الصبا والتصابي فسقاها الوسميُّ ثم الوليُّ
موطني بعد موطني فكأني لغرامي بحبها البحتريي

الى ان قال :

فلديها كل الفنون وفيها ما اشتهاه الشرعي والفلسفي
غير أني أرى الاطايب شزراً وحليف الافلاس عنها قصيُّ

ومما اقتبسه أبيات لسنان صاحب الدعوة الاسماعيلية وهي

لو كنت تعلم كل ما علم الورى طراً لكنت صديق كل العالم
لكن جهلت فصرت تحسب أن من يهوى خلاف هواك ليس بعالم
فاستحي ان الحق أصبح ظاهراً عما تقول وأنت شبه النائم

ترجم لسنان الملقب براشد الدين صاحب الوفيات فقال انه صاحب قلاع الدعوة ومقدم الباطنية بالشام واليه تنسب الطائفة السنانية (او النزارية) وهو الذي هدد صلاح الدين يوسف بقوله

ياذا الذي بقراع السيف هددنا لا قام مصرع جنبي حين تصرعه
قام الحمام الى البازي يهدده واستيقظت لأُسود البر أضبعه
اضحى يسد فم الأفعى بإصبعه يكفيه ما قد تلاقي منه أصبعه

وكتب مرة أخرى :

بنا نلت هذا الملك حتى تأثلت بيوتك فيها واشمخر عمودها
فأصبحت ترمينا بنبل بنا استوى مغارسها منا وفينا حديدها

أما الكتاب الثالث الباقي من تأليف ابن العديم فتاريخ زبدة الحلب في تاريخ حلب (منه نسخة مصورة في دار الكتب المصرية نقلت عن مخطوطة الاستانة) فالظاهر انه أحسن كتبه ولم يبيضه وفيه كلام على جغرافية بلاد حلب وبحيراتها وجبالها وتربتها وهوائها ومائها وخراجها وعادياتها ، وذكر فيه مدناً تعد اليوم من كيليكيا والجزيرة مثل اذنة والكنيسة السوداء وطرسوس وسيس والحدث الحمراء وملاطية

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وسميساط ورعبان ودلوك الى غير ذلك من الحصون والبلاد . وتكلم على جيحان نهر المصيصة وسيحان نهر اذنة والعاصي نهر انطاكية وحماة والبردان نهر طرسوس . وبذلك عرفنا أن عمل حلب في عهده كان واسعاً جداً اكبر من مملكة من الممالك الصغرى لعهدنا . وفيه فصل من اجمل فصول الكتاب فيمن نزل من قبائل العرب باعمال حلب ومن كان قبلهم . ونقل شرط عمر بن الخطاب رضي الله عنه على أهل قنسرين وهو ثمانية وأربعون درهماً على الغني وأربعة وعشرون على الوسط واثنا عشر على المدقع ، وما اشترطه عليهم للنازل بينهم من المسلمين والا يحدثوا كنيسة الا ما كان في أيديهم ولا يضربوا بالناقوس الا في جوف بيعة ولا يرفعوا أصواتهم بالقراءة ولا يرفعوا صليباً الا في كنيسة وأن يؤخذ منهم القبلي من الكنائس للمساجد ، وان يقروا ضيوف المسلمين ثلاثاً ، وألا يكون الخنازير بين ظهراني المسلمين ، وان يناصحوا المسلمين ولا يغشوهم ، ولا يمالئوا عليهم عدواً ، وان يحملوا راجل المسلمين من رستاق الى رستاق ، وألا يلبسوا السلاح ولا يحملوه الى العدو ، ولا يدلوا على عورات المسلمين ، فمن وفى وفى المسلمون له ، ومنعوه مما يمنعون به نساءهم وابناءهم ، ومن انتهك شيئاً من ذلك حل دمه وماله وسباء أهله وبرئت الذمة منه ، وكتب بذلك كتاباً .

واستفدنا من هذا التاريخ أن حلب كانت من أكثر المدائن شجراً فأفنى شجرها وقوع الخلف بين سيف الدولة بن حمدان وبين الإخشيد أبي بكر محمد بن طغج ، فان الاخشيد كان ينزل على حلب ويحاصرها ويقطع شجرها فاذا أخذها وصعد الى مصر جاء سيف الدولة وفعل بها مثل ذلك . وتكرر ذلك منهما حتى فني ما بها من شجر ، واتفق نزول الروم على حلب سنة ٣٥١ ففني شجر الشربين لذلك .

ورأينا له في هذا الكتاب تحقيقات تدل على تأنيه وبعد غوره منها أن ابن القارح ذكر في رسالته حكاية نسبها الى أبي الطيب قال وهذا عجيب فإن أبا الطيب ولد سنة ٣٠١ فكيف تصح هذه الحكاية . قال ابن العديم ولعله غير أبي الطيب ثم بعد حين كتب انه تبين ان الأمر كذلك ، وهذا المتنبي الذي ذكره المؤرخ هو أحمد بن عبد الكريم الأصفهاني .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ويقول ابن الشحنة في تاريخ حلب : أن كمال الدين بن العديم اتقن في تاريخه واجاد واطال ولم يبيض منه الا اليسير وأطال فيه من ذكر الروايات والطرف فجاء بمعنى قليل في لفظ كثير ولم يسبقه أحد بتاريخ لها على الخصوص وسماه « بغية الطلب في تاريخ حلب » رتبه على حروف المعجم كما أخبرني بذلك الأمير النقيب بدر الدين الحسيني نقيب السادة الأشراف بالمملكة الحلبية رحمه الله ان مسودته كانت تبلغ نحو اربعين جزءاً كباراً والمبيضة تجيء كذلك لكن اخترمته المنية قبل اكمال الأمنية وتفرقت اجزاؤه قبل الفتنة التيمورية فلا تجد الآن منها الا نزراً ولم أقف منها الا على جزء واحد بخطه فيه بعض حرف الميم ...

محمد كرد علي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net